المقدمة

دأبت الكتابات التي تعرضت للتاريخ الإسلامي،أو لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم على استخدام منهج يكاد يكون واحداً في شكله وفى مضمونه،وتحديداً عندما يتعرض أصحاب هذه الكتابات لإرهاصات النبوة أو الدعوة إلى الإسلام؛ويعتمد هذا المنهج على سرد أحوال جزيرة العرب الاجتماعية والسياسية والدينية والثقافية فيما قبل الإسلام،مع مقارنتها بما حدث بعد بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم،وذاك منهج لا غبار عليه وربما كان ضرورياً في هذا السياق،ولكنه مع تواتر الدراسات وكثرتها تحول استخدام هذا المنهج أو هذه الطريقة إلى ما يشبه النمط الحتمي فيخطة البحث أو الكتاب المنوط بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أو بتاريخ الإسلام ودعوته،ومن ثمّ اكتسب هذا الأسلوب صفة التقليدية وأحياناً الرتابة، بمعنى أن المتابع لمثل هذه الدراسات يتوقع منذ الوهلةالأولى ما يمكن أن يقوله الباحث في بداية كتابه،فأحياناً يتجاوز القارئ هذه الصفحات بحثاً عن رؤية جديدة في متن الكتاب،والباحث هنا لايقصد من إيراد هذه الملاحظة أن يقلل من شأن التمهيد التاريخي لما قبل البعثة،أو يُنحي باللائمة على من يرتادون هذا المنهج ، وإنما يسعى – الباحث – إلى تفعيلٍ له من خلال استقراء التاريخ لا مجرد سرده، استقراءًيتعدى حدود السرد للدويلات والملوك وصفات الناس وأحوالهم إلى سبر أغوار التاريخ والتعمق في مفرداته لأجل الخروج بصياغة علمية فلسفية تقترب من القارئ المعاصر لتقدم له جديلة مترابطة الأطراف، في ضوء العلاقات المتشابكة بين الأحداث والأفكار والأشخاص.

إذاً لابد من وضوح الهدف من التمهيد التاريخي لبعثة رسول الله

صلى الله عليه وسلم، لا أن يكون هذا التمهيد نوعاً من الترتيب القسرى لأى دراسة أو بحث،وضوح الهدف هنا يؤثر في طريقة الطرح واتجاهاته وتناميه عبر مراحل الدراسة والبحث.

إن ظهور النبي الخاتم لا يمكن أن يكون حدثًا عاديًا، عارضًا أو مباغتًا مقطوع الصلة بما قبله أو بعده، إنه بدون مبالغة حدثٌ إنساني بكل المعاني يأخذ بتلابيب الماضي وأغواره البعيدة بحيث تتكثّف تجارب البشر في تاريخهم لتكون مبرراً أزلياً لنبيآخر الزمان ،ويعيد تشكيل الحاضر الإنسانى ليقود المستقبل، مؤسّساً فيما بعد بشكل دائم ودائب رؤى مطلقة لسعادة الإنسان في أي زمان وأى مكان.

إن تصدعات الجبال وتلاحم البحار وانشقاق الأرض، برغم أنها ظواهر أعجزت الإنسان في تفسيرها حيناً من الدهر لكنه لم يستسلم،وأصبح مع تراكمات المعارف والعلوم والخبرات موقناً بأن ثمة نظام يحكم هذه الظواهر وأنها لاتحدث عفواًأو صدفة،واستنبط في هذا الإطار قوانين للتاريخ الطبيعي والجيولوجي والأنثربولوجي،ولم يكن ذاك بالأمر الهين،وإنما استغرق من عمر البشرية أزماناً ومن جهدها الكثير حتى استطاع الإنسان بشكلٍ ما أن يكتشف العلاقات الحاكمة لظواهر الكون والطبيعة.

الصورة السابقة ربما تشبه إلى حدٍّ كبير ظهور الأنبياء والرسالات؛إنه الناموس الذي يحكم سيرورة وصيرورة العالم في امتداده الزمانى والمكانى. لم يكن الأنبياء مدفوعين برغبة شخصية منهم في الإصلاح والتنوير، وإن توافرت هذه الرغبة فهي ليست المحرك الأساسي أو الداعي الأكبر للنبوة، إذ هم – الأنبياء– لم يحوزوافكراً خاصاً بهم أرادوا ترويجه والدفاع عنه؛

وإنما هم حلقات متصلة ضمن النظام الإلهي لهداية الجنس البشري، كل حلقة تناسب ما واكبها وترتبط بما سبقها من مراحل الرحلة البشرية لاكتشاف الحقيقة واستبصار الطريق القويم.

وإذا كانت القصدية الإلهية قاعدةً أساسية في بعث الأنبياءوالوحي إليهم،فإنها- القصدية الإلهية -لا تنفى والحال تلك أن يكون أصحاب الرسالات من الأنبياء والرسل ذوي مواصفاتٍ خاصة متفردة،فهم برغم خروجهم علىالسياق المحيط بهم، فإنهم أيضًايتمتعون بقدرٍ كبير من الإحترام والتبجيل من قبل السياق ذاته، كما أن اللحظة التاريخية التي تواكب ظهور النبي هي لحظة فارقة في تاريخ الأمم لاسيّما تلك التي أنجبتهم وقُصدوا بالبعث إليها؛ المفارقة هنا ليست من قبيل التبريرفحسب، ولكنها مفارقةَ تعني الجمع بين متناقضين لاتقارب بينهما،الهدم والبناء،الإزاحة والتأسيس،إزاحة المتوارث والثابت من غياب الحقيقة واستشراء الضلال واستساغته،وتأسيس رؤى جديدة عمادها الإنسان ورقيُّه وحمايته،الإنسان بوصفه الغاية والفاعل في آنٍ واحد لإعمار الأرض بما لا يخرق أو يخرج على نواميس الكون وقوانينه المتاحة والغامضة.

إذا طابق ذلك الأمر كلَّ نبي مرسل إلى أمة معينة أو قومٍ مخصوصين بهذه النبوة، فإنه أحرى أن يكون لصيقاً بخاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم، فمع كونه خاتماً وأُرسل برسالة خاتمة فهو مقصود بالرسالة إلى الناس كافة وبرغم أنَّهصلى الله عليه وسلم – معروف ومُبشَّر به في الرسالات السابقة ،وأصحاب هذه الرسالات ربما يترقبون علامات بعثه وموعد ظهوره،إلا إنهم لم يتصوروا خروجه من جزيرة العرب،كما أن القوى الكبرى في العالم آنذاك لم يدرْ

بخلدها ما ستُحْدِثُه رسالتُه وما سيئول إليه العالم بعدها فأنّى يكون ذلك دونما تاريخ وواقع ينبئ بهذا التحول الرهيب، في الوقت نفسه الذي ينبئ فيه بصعوبة الرحلة ومشاقّها.

التاريخ البشري قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم بصفة عامة بأحداثه وشخوصه ووقائعه شهد العديد من صور الحيرة والصراع،شهد أفكاراً ومفكّرين،ساسة وقواد،أنبياء ورسالات،ثبات وثورة،تقدم وتراجع في شتى مناحى عالم البشرية وعلى طول تاريخها، وبرغم أن السيناريو البشري الطويل جمع بين صوره واتجاهاته هدفٌ واحد يتصل بسعادة الإنسان وكماله، إلا أن أبطال هذا السينايو اختلفوا فيما بينهم في طبيعة هذا الهدف ما بين باحثٍ عن تصور آني قصير النظر، وما بين تصور مستقبلي ممتد لكنه قليل الإمكانات، وما بين باحثٍ عن هدفٍ شخصي،وما بين منكر لذاته يتوخّى سعادة جماعته وأمته،وما بين من يحمل رؤية إنسانية عامة أخطأت التقدير وغفلت سعة العالم وتنوع رموزه.

كان لابد إذن من رؤيةٍ تتجاوز ما سبقها، تمعن النظر في الإنسان المجرد في تاريخه وحاضره وفيما يمكن أن يكون عليه مستقبله،رؤيةٌ بقدر ما هي مدعمة من السماء، بقدر ما هي مستعدة للتلاحم مع الواقع والتفاعل معه تأثيراً وتأثراً.

حوى تاريخ البشرية فلاسفةً وحكاماً وقادةً وأنبياءَ حاولوا جميعاً قيادة الجنس البشري إلى الهداية والرشد،كل حسب إمكاناته وظروفه واستعداده، كانوا جميعاً ردَّ فعلٍ لمواقف وآليات سيطرت على العالم في حقبهِ المختلفة،فكان إسهامهم مرتبطاً بالأثر الضيق لكل ظروف صاحب رسالة أو نظرية أو طموحٍ للإصلاح والصلاح.

برغم كل ذلك، فقد كانت الخريطة العالمية حاويةً لكل أشكال الفساد والتجبر والظلم واختلال القيم وتراجعها،إلى جانب تراثٍ من الأديان والنظريات وحركات الإصلاح وفلسفات تفسير العالم وأحوال الإنسان .

ارتبط كل مصلح وداعي إلى الحق بحدود أمته ومن آمن به خارج هذه الأمة، فاصطبغت الديانات والأفكار بكل سلطة تبنَّتها،فلم تسلم من اعوجاج الهدف والمقصد، فتشعبت المذاهب بتشعُّب المصالح والمطامع، وأضحى كل ذي سلطان مُطوِّعاً ما ساد في أرضه من دينٍ أو رؤيةٍ وضعية كانت أم سماوية لسلطانه ومصالحه؛ مُكرِّسًا كلَّ المفاهيم لما يقتضيه جاهُه وملكُه،وساد التناحر والصراع سافراً مرة محتكماً لدواعي السيطرة والنفوذ،ومُقنَّعاً مرات بقناع الدين والتمذهب،وفي أتون ذلك وُجِد مَن حاول تنقية النفوس من شوائب الطمع والتوثُّب للسلطة أيّاً كانت، سياسية أو دينية أو حتى سلطة الشهوات الإنسانية، وكانت هذه المحاولات ترتكن أحياناً للسالف من الأديان ونظريات الإصلاح، وأحياناً أخرى ترتكن لما يستوجبه فساد العالم من ضرورة التحرك للخروج به – العالم – من متاهات الضلال والغيّ وانطلاقاً من حيرةٍ يعيشها البشر تجاه وجودهم ومآلهم.

العالم بقدر احتياجه لمن يتقدمه حاملاً مشاعل النور والهداية بقدر استعصائه على الانقياد ببساطة خلف من يحمل هذه المشاعل،إذ استقرار وتكريس الفساد والمظالم كان من القوة بمكان بحيث يهون أمامه كلُّ جهدٍ أو إمكانية للخروج من إساره وسيطرته، تماماً مثلما كان تراكم وتواتر الرسالات والنبوات،وحتى محاولات الإصلاح البشرية المحضة دافعاً للإقرار باستحالة تغيير العالم.

هذا الموقف المزدوج كان السمة الغالبة والحاكمة في عالم ما قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم،فتحول الباحثون عن الحقيقة ودعاة النور إلى بؤر منفصلة عن جموع الناس،بعيدين عن التأثير الحقيقي والفعّال،وانطوى كلٌّ منهم على ذاته في صورة أقرب إلى اليأس من استجابة الناس وإيمانهم،لكن ثمة صوت هامس كان يؤكد أنهم على مقربة من الحدث الأعظم في تاريخ البشر،ثمة مُنتَظَر تبدو شارات قدومه مُتدرِّجةً في الظهور؛ثمة سؤال عَمَّنْ يكون ومن أين يأتي ؟!ولم تكن الإجابة سريعة بقدر ما كانت مدهشة،فالنور الذي يخترق الدياجير الحالكة غير متكئ على ميراث من العلوم أو الحضارة والمدنية،ولم تتوفر له قوة دنيوية من سلطان أو مال،كما أن بعث النبي الخاتم لم يأتِ موافقاً لما اعتاده الناس من ظهور الأنبياء في بقعة معينة من الأرض ومن قومٍ عُرفوا بتركيز النبوة فيهم وهم بنو إسرائيل،كل ذلك وغيره أوجب النظر في الحكمة من هذه الشواهد المصاحبة لنبوة خير الأنام،حيث تتبدى أسئلة من قبيل:لماذا محمد تحديداً، ولماذا جزيرة العرب،وإلى أي مدى كانت العلاقة بين القرآن الكريم وبين شخصية الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وما هي العوامل المُشكِّلة لهذه الشخصية قبل البعثة، وما هي الحدود الفاصلة بين بشريته وبين نبوته صلى الله عليه وسلم ...أسئلة كثيرة يحاول هذا البحث الإجابة عنها في جهدٍ متواضع علَّه يكون لبنةً في بناء رؤية معاصرة حول نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم .

والله من وراء القصد

فنعم المولى ونعم النصير